نضال العباس من أجل الهوية واللغة

رشيد لحلو

تعز علينا مناسبة تأبين أخ عزيز، واستحضار مناقب عَلم عرفناه قدوة طيبة، ومجاهدا بكلمة الحق النافذة، ومثابرا في نشر العلم والعرفان.

نلتئم هنا على موعد استحضار ذكرى شخصية موسومة بثلاثة أبعاد؛ أديب وعالم وحفيظ على الهوية، وبسجاياه الإنسانية الرفيعة.

هو صاحب رسالة رشيدة متجددة في أكثر من مجال.

على موعد مع الثقة في النفس ما دمنا ننتمي لبلد آمن ومؤمن، سجل التاريخ ثقافة كونية ومناعة وطنية.

ونحن اليوم على موعد مع أثره الملموس، وتأثيره القوي في ضمير من يقربه، أو من عرفه من خلال إنتاجه الأدبي والتاريخي الغزير.

وعلى موعد مع الوفاء له مستحضرين ما ورثناه عنه وقبل ذلك عن والده سيدي عبد الله طيب الله مثواهما.

قد تدفع الغريزة إلى أن نثير في حديث مفتوح ذكريات مثيرة بالنسبة لنا ولكن فحواها لا يتعدى أن يقتصر على نصيب من رصيد خزينة مشاعرنا، لأن نطاقها يظل محدودا، والتجاوب معها محصورا في استحضار شخصي ليس إلا.

ولكني أستثني مع ذلك من بين هذه الذكريات واحدة أرغب في إبرازها، وتتعلق بالصورة المثبتة عند مدخل النادي الجراري، هذا النادي الذي يلتئم أيام الجمعة كما تعلمون.

مناسبة هذه الصورة هي عودة ملكنا محمد الخامس من المنفى وكانت الوفود من كل جهات المغرب بما فيهم القادمين من جنوب المملكة أي صحرائنا المصونة أو من سبتة ومليلية... كانت هذه الوفود تصطف بباب القصر لتحظى باستقبال ملكي، وتحية العاهل الحبيب محمد الخامس طيب الله تراه وتهنئته بالنصر الذي حققه المغرب بقيادته.

وبدورنا اتفقنا زمرة من التلامذة من الرباط وسلا أن نسعى لهذه الغاية، ووقفنا في الصف حتى حظينا بالاستقبال الملكي، ولكن بخلاف ما حظيت به الوفود الأخرى من المهلة أي زهاء دقيقتين أو ثلاث، فإن حصتنا امتدت والسبب أن العباس رحمه الله ارتجل أمام الملك كلمة طالت فترة زمن امتدت عشر دقائق أو تزيد وكانت بلغة عربية فصيحة.

واستغرب البعض كيف يرتجل هذا التلميذ ـ وهو في حداثة العمر ـ خطابا باللغة العربية الفصيحة بينما شأنه شبيه لي لإخوان آخرين هم معنا في هذا المجلس ينتسبون لمدرسة عمومية ابتدائية أو ثانوية جوهر التعليم فيها باللغة الفرنسية .....

من يستغرب لا يدرك محيط أسرته الجيرارية، التي يرعاها علّامة منافح عن اللغة العربية، ثم إن فقيدنا انتسب في فترة ما لمدرسة النهضة بسلا .

قال في خطابه أمام العاهل إن الفرحة بعودة الملك والتخلص من براثين الحماية تجسم انتصار الملك والشعب في نضالهما المتواصل من أجل التحرر من مخلفات الاستعمار وإرساء الأسس الأولى لمغرب مستقل وحديث وموحد ومتضامن وراء ملكه وأن شرارة ثورة الملك والشعب يوم 20 غشت 1953، تفتح عيون الأجيال الصاعدة وتدعوهم لاستحضار كفاح جيل الذين ضحوا بأرواحهم و ناضلوا من أجل التحرر من نير الاستعمار، وإرساء أسس الدولة المغربية المستقلة والمنطلقة نحو النماء والحداثة، ومع نعيم الحرية ستنطلق الأجيال المتعاقبة في درب النماء والاعتماد على الذات ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا و و و هكذا قال

يا لها من كلمة كانت بالتأكيد أكبر من سن هذا التلميذ!!

ومن ذلك اليوم ومع حداثة سنه وهو يناضل من أجل اللغة العربية ولم يتأخر في دعم نشاط الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية التي أتولى رئاستها ولم يعتذر يوما عن الحضور في اجتماعاتها

كانت مواقفه واضحة

يرد على من يدعي أن آليات العصر حاصرت اللسان العربي في خشية تنافر لغة الضاد مع زوبعة العولمة التي تدعي زيفا خلق وحدة ثقافية كونية متكاملة أبرز بالدليل أن هذا من قبيل البهتان

وأنه مطاردة ذاتية، أي من أهلها، باعثها الادعاء أن ثراتنا هو طريد العصر وأن الأمان يقبع تحت مضلة الآخرين وأن من يستند إلى لغة أجنبية ليدعي لنفسه القرب من هوية أجنبية فقد خسر هويته ولا كسب هوية الآخر ما دام ينبطح أمامه مستسلما أن هذا الآخر أعلى منه شأنا.

كان يردد دوما أن ارتباط الإنسان بلغته، هو بمثابة حبل الوريد في انسجامه مع الحضارات، ولا يمحو التطور في صيغته اللسانية إنسانية الأفراد، أيا كانت قدراتهم في لغات أجنبية فالأصل أن تظل اللغة والهوية متلازمة ببعضها، وإلا أين الكبرياء والاعتزاز بالذات. و كلما تعلق الأمر بالخطابات الإنمائية الدولية والمحلية، لماذا يتغاضى المرء عن سجيته ليدرك أن اللغة كأداة للتواصل تبدو كقضية شاملة ترتبط ارتباطا وثيقا بجميع جوانب التنمية متناسيا أن لغة كل مجتمع تظل هي الناقل الأساس، الذي من خلاله يمكن تمديد تواصل واضح المرامي بين حاضر تحاصرنا فيه آليات العولمة وبين إصرار من جانبنا للحفاظ علي هويتنا بمراميها الحضارية المشهودة

وعندما يتساءل الغرباء عن جدوى التصادم مع العولمة التي تدعو لخلق وحدة ثقافية متكاملة، فكما يدعون غايتها صرف النظر عن الهويات الضعيفة .يرد فقيدنا أليس ذلك يعني ازدراء بإنسانينا للدفع بنا إلى انكسار باعثه الشعور أن ثراتنا هو طريد العصر وأن الأمان هو أن نقبع تحت مضلة الآخرين الذين نلتمس منهم إشارات الطمأنة من الحيرة

تأويل هذه الحيرة لا ننتظره عند الطرف الآخر و إنما في أنفسنا وعدتنا أن اللغة هي الدرع الواقي

فإذا كان الاندماج في العولمة يعني الذوبان في ثقافة الغير و اقتناء مقومات حضارته بدعوى تحسين ظروف العيش و الربح المادي فهل ننسى أن ثقافة أي شعب هي بمثابة الروح في جسده وهي عنصر وجودنا واللقاح الذي يقي مجتمعنا من التفكك

وإذا كانت الحضارة تستدعي نبوغا وتقاربا ثقافيا في المجتمع وإذا كان هذا المجتمع في مسيرته عبر الزمان يستند إلى تراث حاضر منه أو موروث، فهل من عاقل ينكر أن لغة كل مجتمع تظل هي التقارب المنشود، الذي من خلاله يمكن تمديد تواصل واضح المرامي بصبغة الهوية

و أختتم باقتباس من مقال للدكتور عباس الجيراري رحمه الله صدر باللغات الثلاث العربية و الفرنسية و الإنجليزية نشرته مجلة إسلام اليوم التي تصدرها منظمة الإسيسكو في عددها بتاريخ 7 فبراير 2016

قال رحمه الله"و لعلنا نقارب الثقافة والهوية الثقافية باعتبارهما ظاهرة حضارية متطورة و متجددة وفق تطور المجتمع و تجدده و ما يطرأ على أوضاعه الاقتصادية و الاجتماعية..ولكن.في منأى عن أي مظهر عن الهيمنة و فرض التبعية..فالهوية تنطلق من الزمان و المكان أي من البيئة التى تنشأ فيها"

و مسك الختام لا يفوتني أن أعرب عن امتناني لصديقين عزيزين الأستاذين الجليلين عبد الكريم بناني و.نور الدين.اشماعو الذين أدركا الوشيجة التي كانت تربطني بالفقيد وفتحا لي المجال للحديث أمام جمع يضم المع شخصيات من المدينتين الشقيقتين الرباط و سلا

ومن ذلك اليوم، ومع حداثة سنه، وهو يناضل من أجل اللغة العربية ولم يتأخر في دعم نشاط الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية التي أتولى رئاستها، ولم يعتذر يوما عن الحضور في أنشطتها.

وكانت له مواقف واضحة يرد على من يدعي أن آليات العصر حاصرت اللسان العربي في خشية تنافر لغة الضاد لا يعدو أن يتمثل في زوبعة عولمة، التي تدعي زيفا خلق وحدة ثقافية كونية متكاملة. وأبرز بالدليل أن هذا من قبيل البهتان وأنه مجرد مطاردة ذاتية، أي من أهلها، باعثها الادعاء أن ثراتنا هو طريد العصر وأن الأمان يقبع تحت مظلة الآخرين فكيف يستند التائه إلى لغة أجنبية ليدعي لنفسه القرب من هوية أجنبية فقد خسر هويته ولا

كسب هوية الآخر ما دام ينبطح أمام هذا الآخر مقرا أنه أعلى منه شأنا.

كان المرحوم يردد دوما أن ارتباط الإنسان بلغته، هو بمثابة حبل وريد يغذي انسجامه مع الحضارات، فهل يمحو التطور في صيغته اللسانية إنسانية الأفراد، أيا كانت

قدراتهم في لغات أجنبية؛ فالأصل أن تظل اللغة والهوية ملازمة بعضها البعض، وإلا أين الكبرياء والاعتزاز بالذات. وكلما تعلق الأمر بالخطابات الإنمائية الدولية والمحلية، لماذا يتغاضى المرء عن سجيته ليدرك أن اللغة كأداة للتواصل تبدو

كقضية شاملة ترتبط ارتباطا وثيقا بجميع جوانب التنمية متناسيا وأن لغة كل مجتمع تظل هي الناقل الأساس، الذي من خلاله يمكن تمديد تواصل واضح المرامي بين حاضر تحاصرنا فيه آليات العولمة وبين إصرار من جانبنا للحفاظ على هويتنا بمراميها الحضارية المشهودة.

وعندما يتساءل الغرباء عن جدوى التصادم مع العولمة التي تدعو لخلق وحدة ثقافية متكاملة، فكما يدعون غايتها صرف النظر عن الهويات الضعيفة، يرد فقيدنا أليس ذلك يعني ازدراء بإنسانينا للدفع بنا إلى انكسار باعثه الشعور أن تراثنا هو طريد العصر وأن الأمان هو أن نستظل دون الآخرين الذين نلتمس منهم إشارات الطمأنة من حيرة الكينونة

تأويل هذه الحيرة لا ننتظره عند الطرف الآخر وإنما في أنفسنا وعدتنا بالأساس أن اللغة هي الدرع الواقي.

لما كان الاندماج في العولمة يعني الذوبان في ثقافة الغير واقتناء مقومات حضارته بدعوى تحسين ظروف العيش والربح المادي فهل نغفل أن ثقافة أي

شعب هي بمثابة الروح في جسده وهي عنصر وجودنا واللقاح الذي يقي مجتمعنا من التفكك.

وإذا كانت الحضارة تستدعي نبوغا وتقاربا ثقافيا في المجتمع وإذا كان هذا المجتمع في مسيرته عبر الأزمنة يستند إلى تراث حاضر منه أو موروث، فهل من

عاقل ينكر وأن لغة كل مجتمع تظل هي التقارب المنشود، الذي من خلاله يمكن تمديد تواصل واضح المرامي بصبغة الهوية. و باقتباسي من مقال للدكتور عباس الجيراري رحمه الله صدر باللغات

الثلاث العربية والفرنسية والإنجليزية نشرته مجلة إسلام اليوم التي تصدرها منظمة الإيسيسكو في عددها بتاريخ 7 فبراير 2016 صدر بلغات ثلاث العربية والفرنسية والإنجليزية ندرك أن تمسك المرحوم باللسان العربي لا يعني رفض امتلاك لغات أجنبية وذاكرتنا تحتفظ بتلك الدروس الدينية الرمضانية بلغة موليير لفقيدنلالتي كانت تبتها التلفزة الوطنية

أقتبس قال رحمه الله;ولعلنا نقارب الثقافة والهوية الثقافية باعتبارهما ظاهرة حضارية متطورة ومتجددة وفق تطور المجتمع وتجدده وما يطرأ على أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية.. ولكن في منأى عن أي مظهر عن الهيمنة وفرض التبعية.. فالهوية تنطلق من الزمان والمكان أي من البيئة التي تنشأ فيها; ومسك الختام لا

يفوتني أن أعرب عن امتناني لصديقين عزيزين الأستاذين الجليلين عبد الكريم بناني ونور الدين اشماعو اللذين أدركا الوشيجة التي كانت تربطني بالفقيد وفتحا لي المجال للحديث أمام جمع يضم ألمع الشخصيات